المطلب الخامس

منظومة في الرد على الزمخشري

الناظم[١]**:**

هو: القاضي أبو بكر يحيى بن أحمد بن خليل السَّكُونيُّ[٢]، اللَّبْليُّ، نزيل أشبيلية.

ولد في حدود سنة (٥٥٧هـ).

كان عالماً بأصول الفقه، وصناعة الكلام، متقدماً فيها، له النظم والنثر والبلاغة، ولّيَ قضاء الجزيرة الخضراء، وأقبل على التدريس، وأخذ عن جماعة، ولم ينقل عنه ما يخالف السنة، ومنظومته قاضية بسلامة معتقده.

له كتاب «حسنات الزمخشري وسيئاته»[٣].

توفي في ربيع الأول سنة (٦٢٧هـ).

---

(١) انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام (٤٥/ ٢٩٩).

(٢) السكوني: بفتح السين نسبة إلى السكون بطن من كندة، الأنساب (٣/ ٢٧٠)، واللباب (١/ ٥٥٠).

(٣) لم أقف عليه، ولكن ذكره تاج الدين القيسي في كتابه الدر اللقيط على البحر المحيط (٤/ ٣٨٥)، وقال: «لم يُعمل في بابه مثله».

ثانياً: المصادر التي ذكرتها:

ذكرها أبو حيان[١] في تفسيره المسمى بـ «البحر المحيط». في معرض رده على الزمخشري في نفيه للرؤية في كشافه، فقال أبو حيان: «قال الزمخشري: . . .ثم تعجب من المتسمين بالإسلام، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً؟ ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة[٢] فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قاله بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حُمُرٌ لعمري مُوكفه

قد شبهوه بخلقه وتخوَّفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وهو تفسير على طريقة المعتزلة، وسب لأهل السنة على عادته، وقد نظم بعض علماء السنة على وزن هذين البيتين وبحرهما.

أنشدنا الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بغرناطة، إجازة إن لم يكن سماعاً، ونقلته من خطه، قال: أنشدنا القاضي الأديب العالم أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني بقراءتي عليه عن أخيه القاضي أبي بكر من نظمه»[٣]. ثم ذكر تسعة أبيات منها.

---

(١) هو المفسر محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤هـ، كان عالماً بالتفسير والحديث والعربية، متفنناً في علوم كثيرة، توفي بالقاهرة سنة ٧٥٤هـ (الدرر الكامنة ٤/ ٣٠٢، وبغية الوعاة ١/ ٢٨٠).

(٢) البلكفة: على وزن فيعلت فعلله، كفلسفة: مصدر منحوت من قولهم (بلا كيف) كقولك: حوقلة، وحيعلة. (انظر الكتاب لسيبويه ١/ ٤٠٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٨٤).

كما ذكرها تلميذ أبي حيان تاج الدين القيسي(١) في كتابه «الدر اللقيط»، وذكر منها إحد عشر بيتاً، وقال: «وقد قرأت أبياته هذه على شيخنا الإمام أبي حيان الأندلسي عن أستاذه العلامة أبي جعفر بن الزبير عن أخيه عن أبي الخطاب عنه»(٢).

وكذا السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» فقال: «وقد عاب أهل السنة بيتيِّ الزمخشري، وأكثروا القول في معارضتهما، ومن أحسن ما سمعته في معارضتهما، ما أنشدناه شيخنا أبو حيان النحوي في كتابه، عن العلامة أبي جعفر بن الزبير بغرناطة إجازة إن لم يكن سماعا، أنشدنا القاضي الأديب أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني بقراءتي عليه عن أخيه أبي بكر من نظمه.

ثم رأيتها في كتاب أبي علي عمر بن محمد بن خليل المسمى بـ «التمييز لما أودعه الزمخشري في كتابه من الاعتزال في الكتاب العزيز»، وقال أجابه عم والدي وهو يحيى بن أحمد الملقب بخليل بهذه القصيدة، ولوالدي فيها تكميل، ولي فيها تتميم وتذييل»(٣).

وقد ذكرها أيضاً شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه «أزهار الرياض في أخبار عياض»، إلا أنه وهم في نسبة هذه المنظومة فقال: «وكقول الشيخ الإمام أبي علي عمر بن محمد بن خليل

---

(١) هو تاج الدين أبي محمد أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي النحوي، ولد سنة ٦٨٢هـ، لزم أبا حيان دهراً طويلاً، وأقبل على سماع الحديث، ونسخ منه أجزاء، وصنف كتاباً في أخبار النحاة، توفي سنة ٧٤٩هـ (الدرر الكامنة ١/ ٥٧، والوافي بالوفيات ٢/ ٣٩٨).

(٢) بهامش البحر المحيط من طبعة دار إحياء التراث (٤/ ٣٨٥).

(٣) (٩/ ١٠ ـ ١١).

السكوني الأصولي» ثم ذكر منها ستة أبيات.

ولكن ليس ما ذهب له المقري التلمساني صحيحاً بل الصحيح أن أبا علي عمر بن محمد السكوني رواها عن عم والده يحي بن أحمد، كما تقدم بيانه مفصلاً في كلام السبكي.

كما ذكرها الألوسي في «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»[(١)] وذكر منها خمسة عشر بيتاً.

ثالثاً: تعريف موجز بالمنظومة وعدد ابياتها:

غاية ما تحصل لدي من عدد أبياتها (اثنان وعشرون بيتاً)، وإن كان السبكي قد تعقب بعض أبياتها بأنها ليست من نظم الناظم نفسه، وإنما من تتمة حفيده، على ما سوف أبينه عند عرض أبيات المنظومة إن شاء الله تعالى.

وأما بحرها فهي من بحر: (البسيط).

وموضوعها ظاهرٌ: فهي ردٌّ على الزمخشري[(٢)] في إنكاره رؤية الله ﷻ وحطهِ على أهل السنة، فرد عليه الناظم ﷺ.

رابعاً: بعض مسائل المنظومة[(٣)]:

١ ـ ابتدأها عائباً على الزمخشري حطه على أهل السنة إذ أثبتوا ما أثبته الله ﷻ من رؤيته تعالى، فقال راداً عليه:

---

(١) جلاء العنين في محاكمة الأحمدين ص١٥٢.

(٢) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ولد سنة ٤٦٧هـ كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، وهو من رؤوس المعتزلة، له كتاب الكشاف في التفسير، والفائق، وغيرها، توفي سنة ٥٣٨هـ (معجم الأدباء (٥/ ٤٨٩).

(٣) الأبيات الواردة هنا من البحر المحيط (٤/ ٣٨٤).

شبهت[1] جهلاً صدر أمة أحمد وذوي البصائر بالحمير الموكفه
وزعمت أن قد شبهوا معبودهم وتخوفوا فتستروا بالبلكفة
ورميتهم عن نبعة سويتها رمى الوليد غدا يمزق مصحفه[2]

٢ ـ ثم أبدع الناظم في تقليب وجوه الرد على نُفاة الرؤية، فرد عليهم أولاً بما جاء من النصوص في إثبات الرؤية، ثم بين الحجج العقلية الظاهرة في إثبات الرؤية، ثم رد على شبههم المتوهمة في نفي الرؤية.

فبدأ بذكر الآيات الشرعية الواضحة المبينة أن الله يُرى في الآخرة، فقال:

إن الوجوه إليه ناظرة[3] بذا جاء الكتاب فقلتموا هذا السفه
نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفه
وجب الخسار عليك فانظر منصفاً في آية الأعراف[4] فهي المنصفة

---

(١) في أزهار الرياض (٣/ ٢٩٩): سميت بدلاً من شبهت.
(٢) قال الماوردي في أدب الدنيا والدين (١/ ٤٠٠): «حُكي أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج له قوله ﷻ: واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول:
أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد
فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده، فنعوذ بالله من البغي ومصارعه، والشيطان ومكائده، وهو حسبنا وعليه توكلنا».
والقصة ذكرها القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٩٧)، وابن الأثير في الكامل في التاريخ (٢/ ٤٤٦)، وغيرهما.
(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].
(٤) يشير إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ =

ويآية الأنعام[1] ويك خذلتهم فوقعتم دون المراقي المزلفة

٣ - ثم بين بعض الحجج الظاهرة، بكون الله تعالى يُرى، فقال:

انرى الكليم انى بجهلٍ ما انى وانى شيوخك ما أتوا عن معرفة
خلق الحجاب فمن وراء حجابه سمع الكليم كلامه إذ شرفه
من لا يُرى قل كيف يحجب خلقه نهنه نُهى[2] أشياخك المتكلفة
لو كان كالمعدوم عندك لا يرى ذهب التمدح في هزاء السفسفه

٤ - وأجاب عن شبهتهم في صرف قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، حيث زعموا أن هذه الآية قاضية بمنع الرؤية مطلقاً، فقال:

المنع من إدراكه معنى به حجب النواظر يا أصيبع زعنفه
والمنع مختص بدار بعدها لك لا أبالك موعد لن تخلفه

٤ - وختم منظومته بقوله:

لوصح في الإسلام عقدك لم تقل بالمذهب المهجور في نفي الصفة
شبهت يا مغرور أو عطلت إذ ضاهيت في الإلحاد أهل الفلسفة

= قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية (الأعراف: ١٤٣).

(١) يشير إلى قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وكأن الناظم ﷺ يتهكم منه بأنه خذل أتباعه بفهمه الخاطئ لمعنى هذه الآية.

(٢) نهنه: فعل أمر، أي كُف عقول أشياخك. (القاموس ص١٧٦٩).

وأما الأبيات التي تفرد بها السبكي في طبقاته، وقال أنها تتميم من أبي علي عمر بن خليل[1]، فهي:

ولما نسبت إلى النبوة زلة ... في «ص» و«التحريم» فاسمع مصرفه
أو ما علمت بأن من آلى فقد ... ترك المباح وكف عنه مصرفه
لا أنه جعل الحلال محرما ... شرعاً فعصمته أبت أن يقرفه
فجهلت هذا وانصرفت لظُلمةٍ ... أعمت عليك من الطريق تعرُّفه
لم تعرف الفقه الجلي فكيف بالـ ... وحيد في تدقيقه أن تعرفه

فهذه منظومة أبي بكر بن الخليل السكوني، غفل عنها كثير من أهل السنة برغم جزالتها، وظهور حجة ناظمها، وجميل سياقه للأدلة النقلية والعقلية[2].

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٩/ ١٠ ـ ١١).

(٢) ولكن لم يغفل عنها بعض أرباب البدع، فهذا المعاصر الأباضي أبو مسلم البهلاني العُماني (١٢٣٧ ـ ١٣٣٨هـ) يعارض هذه المنظومة بقوله:

نَزِّه إلهك أن يُرى كي تعرفه ... أتراكَ تعرفه وتُثبتُ ذي الصفه
واعرف مقامك دون ما حاولتَهُ ... إن التي حاولتَها لك متلفه
هذا التناقض في اعتقادك شاهد ... يقضي عليك بأن دينك عجرفه
هب أن برهان العقول رفضتَهُ ... فالنص تستر شمسه متكشفه
أيقول ربك لن تراني فارتدع ... وتقول سوف أراك خلف البلكفَه
أو ليس هذا عناد ظاهر ... فاذهب أمامك موعد لن تخلفه

وهو يقرر فيها مذهب الأباضية في نفي الرؤية، وقصيدته هذه طويلة في مائة وثمانية أبيات، وأسماها: طمس الأبصار عن إدراك رؤية ذات الجبار، وهي في ديوانه، ولم استطع أن أقف عليه. وقد نشرت في موقع: المجرة العُماني.